
علاء الدين فوزي
اغنية على السين


م. سرمد حاتم شكر

اغنية على السين

علاء الدين فـــوزي

اغنية على السين

مطبعـــة حـــداد ـــ البصرة

١٩٧٤

□ كنت حائراً بين البقاء فى باريس أو الرحيل ، فلجأت الى المكان الذى يلجأ اليه المتوحد والعاشق والمفكر والمشرد والهارب من صخب المدينة ولهوها ٠

البارحة ، هنا ، ردد الليل اغنية فرانسواز لتمتزج برائحة نهر السين وسكون ضفته ٠ ها هى مياه النهر تنساب كأن أجنحة الاصيل ترف على صفحته السمراء لتمضى بهدوء

كأحلامى القانطة ، بينما أرقب من مكانى
الفنان الشاب وهو يقوم برسم واجهة كاتدرائية
نوتردام ، ناظرا اليها من تحت القنطرة
الصخرية التى ظهر جزء منها فى أعلى الورقة .
كان يرسم خطوطها بالحبر الجاف بدقة وبراعة .
ربما كان ما يزال طالبا فى البوزار أو أحد
المحترفين . انه كباريسى يستطيع أن يرسم على
هواه وقتما شاء . فلديه ضمانة العيش .
وربما كان غريبا مثلى . يعانى من حاجته الى
المال . البارحة فقدت كل أمل . كدت استدين .
قاومت طيلة الشهر بعد أن وجدت نفسى فى
هذه المدينة مقطوعاً بى الحبل . ومرت الايام
باهظة الثمن . اللوحات جميعها بيعت بثمن
بخس . لم يبتسم لى الحظ سوى اليوم ولكن
بعد الأوان . لبثت طوال الشهر أمنى نفسى
بغد أو بعده . كنت أشعر دائما أن ثمة

أجنحة خفية تحلق بى كلما هويت . ما دامت اقامتى محددة بشهر واحد فقد صار لزاما على أن أغادر باريس غدا . لو كنت أحذق النطق بلغة فرنسا لهانت جميع الصعاب . ولو كنت عالما بما ينتظرنى لهيأت نفسى لتعلمها قبل السفر بستة شهور على الاقل .

فيما كنت مستغرقا فى صمتى ، سمعت هتاف فرانسواز يهب على كنسمة ناعمة عذبة .

ـ « بونسوار ! أنت هنا ؟ »

رأيتها من خلال حلم تسرع فى عدوها نحوى بخطوات حذائها الجلدى . كانت ترتدى ثياب الامس . وشعرها الذهبى يتطاير فوق كتفيها كسياط تسوقها نحوى بلهفة وشوق .

حين ودعتها ليلة الامس خيل الى انني سوف لن اراها بعد . هبطت من السور الحجرى وفتحت لها ذراعى كما يفعل العشاق فألقت بنفسها على صدرى .

ـ « كنت قلقة عليك . ندمت كثيرا لاننى تركتك تغادر . بحثت عنك بلا طائل . يا للصدفة السعيدة . ذكرى الامس جاءت بى الى هنا . عندما كنت ورفاقى فى المقهى أحسست بانقباض فى القلب . كنت بحاجة الى الوحدة فغادرتهم وجئت ، ولم يدر فى خلدى اننى سألقاك من جديد . هل تذكر الاغنية ؟ »

تذكرت بعض الكلمات ، فرددت فى أذنها التى كانت قريبة من فمى :

« ما دمت تذكر فأنت لا محالة تعود . »

ثـم سرت و اياهـا الى مصطبة خالية وجلسنا . كانت جذلى ومغتبطة . ولكنني قلت :

« لعله اخر لقاء يا فرانسواز ! »

قدمـت لى سيجارة مـن حقيبتها الصوفيـة وتساءلت :

ـ « حقـا ؟ »

ـ « قررت أن أغادر غدا . من أجل هـذا جئت الى هنا لأودع ذكريات الامس . كنت اخر ذكرى عطرة منحتها لى باريسكم الجميلة . انني لسعيد بلقائك مرة اخرى . »

قالت فرانسواز بصوت متهدج :

ـ « صحيح أننا تعارفنا ليلة أمس فقط ٠ الا أننى مستعدة لكل مساعدة ٠ المال ليس كل شىء ٠ أخشى أن يكون ما فقدته البارحة قـــد سبب لك المــاً كثيرا ٠ »

كررت كلامها وقلت :

ـ « المال ليس كل شىء ٠ كسبت اليـــوم أضعافـــه ٠ »

ومضيت اشرح لها ظروف اقامتى ٠ وجواز سفرى لا يتضمن سوى اقامة لمدة شهر فـــى فرنســا ٠

قالــــت :

ـ « بوسعنا أن ندبر كـل شيء • المهم ان تقرر البقاء • »

ـ « قررت الرحيل الى المغرب وقد اعـود فى الصيف القادم • »

أساءها قرارى • اغرورقت عيناها بالدموع • تمتمـت :

ـ « أود لو بقيت •• أود لو بقيت •• »

كان الوقت مـا يزال أصيـلا • وكنا جالسـين قريبا من المكان الذى جلسنا فيه ليلة البارحة • وتذكرت كل متاعبى • وأحسست بحاجة الى أن أروى للفتاة بالقصة كاملة بعد أن أضحت اكثر من صديقة جمعتنى بها ظروف غريبـة أشـبه

بالضياع . سألتها:

ـ « هل لديك رغبة للذهاب الى المقهى أو أى مكان اخر ؟ »

أجابت وهى تغمض عينيها :

ـ « سئمت أجواء المقاهى . المكان هنا أفضل . »

كانت أعالى اللوفر تلتمع بنور الشمس وكنت أرى عبر النهر اكشاك الكتب القديمة تغلق واحدة بعد الاخرى كلما اقترب المساء . ومضيت اروى لفرانسواز قصة رحلتى منذ البداية ، فيما كنت أحاول أن أتذكر الاشياء من خلال الزمن المفقود . منذ ذلك الصباح

الباكر ، عندما تم كل شيء بسرعة • وهكــذا شاء صاحبي لسفرتنا أن تكون، عندما أقبل على يقدم لي رسالة وردته من صديقنا سامي المقيم فــي باريس منذ ثلاثــة أعــوام يدعونا للتوجه اليه وترك مشاريعنا في بغداد • أكد لنا انــه مستعد لتدبــير كل شيء • الاقامة معه الى حين ومشاركته فــي أعماله التجاريــة • اعتــبرت دعوته فرصة لزيارة باريس • كل رســام فــي العالم يطمح في رؤيتها • وها هي تفتح لنــا ذراعيها من خلال دعوة صديق نثــق بوعوده •

حزمنا أمرنــا واغلقت مرسمي الصغير • ولكن معاملة سفر زهــير تأخرت نحو شهــر • انه يغــادر العراق لاول مــرة • وكان شــديد الفرح مثلي • هو الاخر يحمل فرشاة تمكنه من العيش حيثما يشاء • كان فناننا أكاديميــاً •

وقد أمضى حياته يصور الطبيعة فـى الموصل ٠ وكانت بضاعته رائجة ٠ وغادرنا بغداد وبحوزة كل منا نحو مئة دينار ٠ أكثر من ألف فرنـك ٠ وكان لابد من الاقتصاد ٠ جربنا أن نركب من بـيروت الى مرسيليه بالباخرة ٠ ثم تبين لنا أن السفر بهذه الوسيلة يقتضى الانتظار نحـــو أسبوع اخر ٠ وعندما كنت انظر فى الخارطـة السياحية التى كانت بحوزتى فكرت أن أفضل من ذلك هو السفر برا ٠ أى القيام بنصف دورة حول البحر الابيض ٠

ركبنا سيارة نقـل سياحية الى استانبول ، حيث لبثنـا خمسة أيـام للاطلاع عـلى معالمها ومتاحفها ٠ ومنها ركبنا القطار الى بلغراد حيث لبثنا يوما واحدا ، وامضينا ليلة فى غرفة وثيرة فى بنسيون سـيدة كانـت وخادمها يلتقطان

السواح فى أحدى الساحات العامة • وبعدها تابعنا رحلتنا فى القطار الى ميلانو • وكانت رحلة ممتعة اتاحت لنا رؤية مدن كثيرة •

وصلنا ميلانو بعد الظهر • تجولنا فى شوارعها بضع ساعات وعند المساء غادرناها بالقطار الى تورينو • لاننا لم نكن نحمل رخصة السفر عبر الاراضى السويسرية • فقررت ان ندخل فرنسا عبر الارض الايطالية • وكان اخر عهدنا بالقطار عندما غادرنا تورينو الى مدينة شمبرى • أول مدينة فرنسية نصلها •

لقد كان بودى أن نقطع رحلتنا من استانبول الى فرنسا بطريقة « الاوتوستوب » ولكن صاحبى آثر ان نصل بأسرع وقت حتى نعوض عن التأخير الذى سببته معاملة سفره •

ولكن هذه السرعة لم تمنعنا من التريث في المدن التي نراها لاول مرة .

وصلنا مدينة شمبري في منتصف الليل . فلبثنا ننتظر الفجر في المحطة . لم تكن لدينا رغبة في النوم بعد أن نمنا بالمناوبة في القطار وعندما كنا نقطع الساعات الاخيرة من الليل بالثرثرة قررنا أن نمارس السفر الحر بعد أن ذهب النصف من نقودنا .

ومع الخيوط الاولى من الفجر غادرنا المدينة مشيا وعلى ظهورنا حقائبنا الجلدية ، حتى اذا بلغنا مشارف المدينة توقفنا على قارعة الطريق رافعين ابهامنا في وجوه السيارات القليلة العابرة . خلال نصف ساعة لم نوفق في المحاولة ، فتابعنا سيرنا .

بعد قليل اشرقت شمس الصباح تطل على بحيرة لاحت لنا في الجانب الايمن مستلقية كبساط من الزجاج الازرق • عندئذ بدأت عيوننا تتفتح على طبيعة الارض الفرنسية الساحرة • خيل الى وقتئذ أن روح لامرتين ترف فوق مياهها المتلألئة • بل شعرت أن روح فرنسا كانت تخفق من حولنا بكل نقاء وعنفوان • ما أروع أن يشاهد الانسان بلادا لم يرها • ان الارض حقا هبة لكل البشر يقلبون فيها الطرف أينا يولون • لست أذكر أحاديثنا التى تبادلنا ونحن نتطلع الى البحيرة من عل • ولكننى أذكر فقط اننى أحسست بالغبطة وسط الكون • وكنت أطالع فى وجه صاحبى نفس الاحساس •

كانت المدينة قد أصبحت وراءنا على بعد كيلومترات حين صادفنا كوخ حجرى يطل على

الوادى من جهة اليمين • كان جزء منه عبارة عن مقهى صغير تديره امرأة عجوز ، تتوقف عنده بعض السيارات المارة للاستراحة، فاتجهنا نحوه • كنا نصحب معنا كتابا لتعلم اللغة الفرنسية نستمد منه الجمل الصغيرة التى تساعدنا للتفاهم •

قلت للمرأة العجوز وهى تقترب من الطاولة :

ــ « بونجور مدام • دو كافيه ! »

فهرعت المرأة تحمل الينا القهوة بكل رقة وبشاشة دون أن تثقل علينا بالسؤال • وبعد قليل حضرت ناقلة كبيرة • فهم سائقها اننا ذاهبين الى ليون • فركبنا معه •

وصلنا ليون قبل الظهر بقليـل ، بعد أن اجتازت الناقلة عددا من القرى والمدن خـلال طبيعـة رائعة ساحرة . أمضينا في مدينة ليون ساعتين . أطلعنا خلالها على أول مدينة كبـيرة وعلى شعب كنا نعرف الكثير عنه من خلال الكتب والافلام فأصبحنا نراه من خلال نظامه ونظافته وجها لوجه . ولكننا كنا متلهفين لرؤية باريس . فمضينا الى خارج المدينة، حيث كانت السيارات تغادرها بالمئات . وسرعان ما نجحنا فى الصعود الى سيارة قديمة اصطدناها بأبهامنا بعـد أقل من عشرة دقائق .

كانت السيارة فرنسية قديمة الطراز من نوع رينو . يقودها شاب يدعى سيرجى . مـن أصل أرجنتينى . دلت هيأته وقيثاره على انـه من الهيبيز . كان يتكلم الانجليزية بطلاقـة .

جلس زهير فى الخلف مع بقية الحقائب وجلست الى جوار الشاب الذى بدا بلحيته وشعره المستطيل أشبه بالممثلين . لقد فرح بمصادفتنا عندما علم بأنه يقل فنانين .

قال انه من اسرة ارجنتينية مقيمة فى باريس . وانه كان قادما من أسبانيا وانه فى سبيله الى باريس للعمل فى أحد مرابعها الليلية لو وفق فى الحصول على عقد مناسب . كان يتحدث بالفرنسية كأهلها عندما يخاطب نادل المقهى التى نلجأ اليها للاستراحة من السفر كل ساعتين أو حين يتكلم مع عمال محطات البنزين عند الحاجة كان شابا كريم الاخلاق . رفض أن ندفع عنه ثمن أى غالون من الوقود . وكنا نجد صعوبة فى الدفع عنه ثمن فنجان قهوة . أسمعنا الكثير من الاغانى

الاسبانيولية . وأفادنا فى كثير من الانطباعات عن الحياة الباريسية . وبعد نحو سبع ساعات وصلنا باريس .

الطريق بين ليون وباريس اعجبني كثيرا . انه يلوح كخط طويل يترامى أمام العين منبسطا كراحة اليد . وعندما حل الظلام كان يبدو تحت اضواء السيارات اشبه ببساط من النور تظهر خلاله خطوط السير واضحة وليس على سائق السيارة الا أن ينطلق بأقصى ما يمكنه من السرعة . ولكن سيارة سيرجى كانت قديمة . ورغم سرعتها القصوى فقد كانت السيارات تجتازنا من الخلف وكأن سيارتنا واقفة بلا حراك مع أن سرعتها بلغت الثمانين كيلو مترا فى الساعة .

حوالى منتصف الليل ظهرت لنا أضواء

العاصمة . لاحت أشبه بمهرجان مكوكب متوهج . ما اكثر الجسور التى مرت من فوقنا. كانت باريس تلك الليلة ، ملتحفة بأضواء الارض ونجوم السماء .

عندما بدأت السيارة تنحدر بأنحدار الطريق لتجتاز الانفاق المضيئة من كل جانب قال سيرجى :

ـ ها نحن نتجه الى القلب . اين تزمعون التوقف ؟ ان سيارتى فى خدمتكم . ـ

قلنا له أننا نفضل المبيت فى الفندق ، رغم أننا كنا نحمل عنوان سامى . فقال انه سيذهب بنا الى فندق يديره شخص يعرفه .

وما هى الا دقائق حتى بدأت السيارة تشق

طريقها وسط شوارع باريس . واعلن سيرجى:

ـ نحن الان قرب حدائق اللوكسمبرغ .

ظهرت لنا من جهة اليسار مظلمة سجينة وراء قضبان عالية . وبعد قليل كنا نجتاز شارع الشانزليزيه الطويل . هنا تتألق عاصمة النور . ورغم ان الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل ، فإن سيرجى قام بثلاث دورات حول قوس النصر . قال :

ـ يمكنكما أن تشاهداه عن كثب . ما اكثر ما درت حوله كلما عدت من سفر .

بعد ذلك عاد بنا الى بوليفار سان ميشيل . ليقودنا عبر شارع فرعى الى « أوتيل فرنسا

الكبير » حيث وعدنا بأن يحضر الينا فى اليوم التالى . وهكذا بتنا ليلتنا الاولى فى هذا الفندق الخشبى الذى كانت الواحه تصر تحت أقدامنا لقاء خمس وعشرين فرنكا لكل منا .

كنا مرهقين . فنمت حالما أغمضت عينى . اننى لن أنسى تلك الليلة وما وقع لى فيها . ففى نحو الساعة السادسة صباحا أحسست بثقل يضغط جنبى . وبدفء يتسرب الى جسدى . فتحت عينى فأذا بأمرأة ممددة جانبى . قفزت من السرير مبهورا واضأت الغرفة . اذا بى أجد امرأة فى نحو الستين من العمر وعلى وجهها مسحة من جمال غابر . كان واضحا أنها تغط فى نوم عميق . ارتديت بجامتى وغادرت الغرفة وهبطت الى مكتب الادارة وقابلت الشاب الذى كان جالسا وراء المكتب يطالع فى مجلة .

دهش لدى رؤيتى وسألنى :
ـ أو لم تنم بعد ايها السيد ؟

كنت غاضبا فقلت :
ـ بلى لقد نمت . ولكن ثمة سيدة تنام فى فراشى . ـ

ترك الشاب كرسيه على الفور ، ومضى يرافقنى وهو يتمتم :
ـ معذرة أيها السيد . ان المرأة اللعينة هذه تقيم بأجرة شهرية فى الغرفة المجاورة لغرفتك . هذه ليست فعلتها الاولى . غالبا ما تخطىء بابها حين تعود من التواليت فى بعض الليالى وتلجأ الى باب هذه الغرفة حين يتفق ان تكون غير مغلقة من الداخل .. هل ما تزال نائمة ؟ ـ

أجبت : ـ لعلها تحلم أيضا ! ـ
تركته يوقظها ومضيت الى التواليت ، وعندما عدت لم أجدهما فأغلقت باب الغرفة ونمت من جديد .

أستيقظت فى ضحى اليوم التالى عندما سمعت صاحبى يطرق باب الغرفة . ولم يحضر سيرجى كما وعد .

وحوالى الظهر انطلقنا نبحث عن عنوان سامى . عثرنا عليه فى ناحية بانوليه . طرقنا باب شقته طويلا بلا جدوى . وظهرت لنا امرأة من شقة مجاورة فهمنا منها أن شقة سامى خالية وانه غادر منذ اسبوع ليقيم معرضا لرسومه فى المانيا وبلجيكا بدعوة من هناك . وسرعان ما أدركنا أننا قد

وقعنا في حيرة . وأحسسنا بأننا نواجه ورطة أو متاهة في هذه المدينة . وكان علينا أن ندبر أمورنا بأنفسنا .

في الايام الاولى لم يكن في ايدينا ما نفعله . لبثنا بضعة أيام في الفندق ريثما نعثر على اخر بأجرة اقل . ولكن الايام كانت تمر مسرعة وبلا طائل .

أخذنا نتردد على متاحف اللوفر كل صباح حيث أتيح لنا أن نشاهد عن قرب الموناليزا أو الجيوكاندا ، رائعة ليوناردو دافنشي . لاحت لنا بسبب العناية الدائمة وكأنها خرجت توا من تحت ريشته الخالدة . وبعد الظهيرة من كل يوم كنا ننطلق الى أحياء مونمارتر نتسكع كبقية السواح نلف وندور حول الرسامين

الذين يصورون فى الهواء الطلق قريبا من كنيسة القلب الاقدس حيث اختاروا ساحتهم الصغيرة ليعملوا وكأنهم آلات طباعة . وكنا عندما يضنينا التجوال نعود ادراجنا الى مقهى «دى بار» الذى يبعد دقائق عن فندقنا . وهناك يتاح لنا أن نتعرف بين وقت واخر على أشخاص من بلادنا ، وكان اغلبهم من الطلبة . وكنا فى بعض الاحيان نفضل قضاء فترات الراحة فى حدائق اللوكسمبرغ . لم نكن نعرف ما نفعل فى بداية الامر . كنا غرباء وبحاجة الى أن نتعرف على كل شىء . فى الليل كنا نجوب شوارع السان جرمان والحى اللاتينى نتفرج على مجموعات الشباب ونستمع الى موسيقاهم واغانيهم الى ساعة متأخرة من الليل . كم اتمنى الان لو كنت تعرفت عليك فى تلك الايام .

خلال الاسبوعين اللذين امضاهما زهير معي . جربنا أن نرسم . اشترينا عددا من القماشات الجاهزة ورحنا نصور على طريقة فناني مونمارتر ، لوحات تمثل الجسور فوق السين والاحياء الشهيرة ، أو برج أيفل والطاحونة الحمراء وغير ذلك بأسلوب انطباعي ولكن تبين لنا أن مصروفنا ما زال يزيد على ما نربحه من اللوحات التي كنا نجد في بيعها صعوبة . كنا نفتقر الى اجازة العمل . وكنا مغمورين . وظروفنا لا تسمح بأقامة معرض. واللغة كانت عقبة كأداء . وكانت رسومنا عبارة عن بضاعة نتوجه بها الى السواح . وعندكم هنا ، وعي الانساني الفرنسي هو الذي يقرر اشكال الفن . وانا وصاحبي نعرف بيكاسو وبراك ورواد الفن الحديث الا ان لنا أتجاهنا الخاص . والفن الحديث يبدو لنا مغامرة

غـير مأمونة .

كان صديقى يردد :

ـ لا أستطيع أن أرسم وأنا قلق . وفـي هذه الحالة لا أستطيع العيش فى باريس مـن ريشتى . سأبحث عن عمل اخر . ـ

وصار يبحث عن عمل هنا وهناك ولكـن بلا جدوى . كانت اللغة تقف اكبر حائـل . وبعد أيام عاد صاحبى الى بغداد عن طريـق السفارة. حاول أن يقنعنى بالعودة معه فرفضت وكذلك فشلت فى أقناعه بالبقاء . عندمـا ودعته فى المطار ، قال لى :

ـ اذا الحظ حالفك وبقيت فـى باريس ، فلسوف اجيئك فى الصيف القادم .

وكذلك وعدته بالكتابة اليه فيما لو حالفنـي الحظ .

عندما أصبحت وحيدا كان معى مبلغـــا
يكفى لبضعة أيام ومجموعة صغيرة من اللوحات
جاهزة للبيع . وبعد يومـين تعرفت فـى مقهى
الدى بار على شاب تونسى يدعى أحمد. يشتغل
عاملا فى أحدى الشركات الصناعية . عـرض
على أن أقيـم معه الى حين فى شقته الكائنة فى
ضاحية «ستالينجراد» . يقيم وحده منذ خمسة
أعوام ، فى شقة زودها بكل اسباب الراحـة .
وقـد تـرك لى مفاتيحها الاحتياطيـة لاغادرها
واعـود اليها متى شئت . واحمد هـــذا فى
نحو الخامسة والعشرين . مثقف متمرد ومحب
للفنون وقد عرفنى عـلى كثـير من اصدقائـــه
الفرنســيين .

أفرد لى غرفة من شقته لتكون بمثابة مرسم
خاص. فأخذت استقبل فيها صديقـه روبــير

الذى يعمل ديكورست فى أحد المسارح • وكان هذا يجلب لى بعض اصدقائه لاصورهم بقلم الرصاص •وكذلك كنت أستقبل صديقته جانين ، ايطالية الاصل وضعت على عاتقها تدريسى اللغة الفرنسية التى بدت لى اشبه بلغة البلابل• وهكذا بدأت اعتاد الحياة بسرعة•

قبل أيام دعانى أحمد للذهاب معه الى أحد مقاهى الشانزليزيه وهناك عرفنى على ثلة من أصدقائه • كان أحدهم يدعى البير وهو شاب سويسرى يقيم وزوجته فى الحى اللاتينى • كان هذا رسام بوسترات • فأقترح على أن أصمم واحدا • وبعد يومين قدمت له بوسترا يمثل مناضلا عربيا بأسلوب تجريدى وباللونين الاحمر والاسود • اعجبه التصميم ووعدنى بطباعته بالسيراغرافيا • الا أن البوستر لم

يطبع حتى الان • ولاننى بدأت أعمل بجـــد ومثابرة فقد أخذت مشاكلى المالية تتيسر • كما أن أحمد وعدنى بأن يسعى لتدبير اقامتى عندما يتاح له الوقت المناسب • ولكن كان كل يوم يمر يسبب لى حرجا ، لا سيما وان أيامى أصبحـــت متشابهة •

كنت أستيقظ فى الساعة السابعة صباح كل يوم • وبعد أن أرسم ساعتين كنت أحمـــل دفتر الرسم وبضع لوحات وانطلق الى ناحيـــة برج أيفـــل • وهناك أجلس على مصطبـــة وأرصف لوحاتى • ثـــم أمضى الوقت ارقـــب السواح وهم يتجولون فـــى حدائق البـــارك او يتسابقون فى قطع التذاكر للصعود الى البـــرج الذى كنت أصوره فى لوحات صغيرة زاهية •

كان بعض الموسرين يشترونها بثلاثـــين

فرنكا وهو ثمن تجارى زهيد يشجعنى على المضى في عملى وبيعه فى تلك الناحية التى أصبحت فيها معروفا كفنان سائح لرجال الرقابة الذين كانوا يمرون بى ويسلمون على:

ـ « هالوا مسيو ! »

وأغلبهم كان يحسبنى فنانا اسبانيا متجولا. وقبل الظهر كنت اعود من هناك مشيا الى ساحة فكتور هيجو ، وهى مسافة طويلة تتيح لى التمتع برؤية المدينة . ثم من هناك كنت اختفى تحت المدينة لاذهب الى ناحية مونمارتر قاطعا المسافة من ميترو الى اخر ، حيث لا أسمع سوى هديره يتجاوب فى نفق هائل يكاد يتميز بعالم أرضى خاص . ليس فى بلادنا مثله . كنت طفلا عندما وقعت عينى لاول مرة على عربة تسير

على سكة حديدية تصل ما بين بغداد والكاظمية ولكنها تسير بقوة الخيل • وقد أختفت بعد سنوات لتحل محلها السيارات الحديثة • ان ميترو باريس يتميز في ذاكرتي بعالم خاص• ويوحي الى بتصورات غريبة لمدن المستقبل حين يشتد زحام البشرية • هل سمعت التام تام؟•• أجل سمعته اكثر من مرة حين كنت انتقل من محطة الى اخرى يقرعه أحد سكان افريقيا الوسطى وكأنه صوت الغابة العذراء في قلب المدينة الحديثة وما فيها من ضياع انساني يتجلى في حياة الشبان البائسين الذين يواجهونني حاملين قيثاراتهم ويشحذون :

ـ « المعذرة مسيو •• اعطني شيئا • »

ربما كانوا كسالى كما تزعمين • ولكنها جزء من لوحة هذا العصر •

فى حى الرسامين اتفقت مع فنان يابانـــى مقيم على أن أعرض لوحاتى مع مجموعته لقاء نسبة معينة ، بعد أن منعنى البوليس اكثـــــر من مرة من ممارسة العمل فى تلك الساحة . كان اخر عهدى به قبل يومين حين دفع الى ثمن ما باعه من لوحاتى ، فصار لدى اكثر مـــــن ثلاثمائـــة فرنك . فقررت أن أقضى سهرة فى الحى اللاتينى هذا الحى الذى كنت أفضله عـلى ناحية الاوبرا أو المونبرناس .

لـــم يكن لدى ما اعمله البارحة فأنطلقــت منذ الصباح الباكر الى اللوفر وبعد أن تجولــت ساعتين أمضيت نحو ساعة فى حدائق التويلـــرى حيث لـــم أشاهـــد ســـوى الاطفال والشيوخ . ومنها أنطلقت الى شــــارع الشانزليزيه ومضيت أســير على غير هدى حتى وجدتنى فى ساحــــة

النجمة أمام قوس النصر • كان عدد غفير من السواح ينتشرون حوله• لم أجد رغبة في الصعود اليه • وسرعان ما غادرته لاعود، ولكننى بعد مسافة قليلة انعطفت الى شارع دى بيرى حيث تناولت في أحد المطاعم وجبة من المقانق والبيض مع كأسين من البيرة • وبعد ذلك مضيت الى ساحة الكونكرد وفي الطريق عرجت على بار تناولت فيه قدحا اخر من البيرة • وبينما كنت أيمم شطرى نحو السان جرمان تذكرت اننى قد مشيت كثيرا عبر مسافات طويلة مترامية دون أن أشعر بالتعب أو الارهاق •

ومن خلال نشوتى السعيدة كنت أرنو الى الفتيات الجميلات اللواتى كنت أشعر بأن ثمة جدار من الصمت والغربة يفصلهن عنى • انا

ما عرفت من النساء هنا سوى جانين وانت ٠

كنت أفضل الجلوس مع فتيات الهيبز على مدارج مونمارتر نهارا ، أو على ارصفة السان ميشيل ليلا حيث أجدهن أكثر بساطة وحرية، بيد أننى لم أسع لصداقة واحدة ، رغم اننى كنت انطلق معهن كبقية الشبان فأصفق على أيقاع القيثارات أو أردد مقاطعا من اغانيهن التى أمتزج فيها اللحن الاسبانى ٠ وكذلك كانت حالى مع السواح من الهيبز الاوربيين الذين قدموا الى باريس لمشاركة اخوتهم من الفرنسيين فى هذه الاستعراضات العامة فينتشرون مثلهم جماعات جماعات منذ المغيب حتى ساعة متأخرة من الليل يستعرضون ما لديهم من فنون العزف وألوان الغناء ٠ ومتعتهم كجميع الشبان فى كل مكان أن يجتذبوا اليهم

فضول الجماهير السائرة واعجابهم . وما اكثر ما ترددت على أحياء السان جرمان متنقلا مـن زقاق الى اخر استمع الى هذه المجموعة واتفرج على تلك ، وكنت اشاهد سراة السواح يطيـب لهم أن يشاركوا فى هذه الاستعراضات الليلية وما يتخللها من حوادث هزلية ومفاجآت سارة. كأن يظهر من زقاق مظلم احد الشبان محمـولا على الاكتاف مقلدا هيأة ميت ومتبوعا بموكب حزين يتخلله نواح وعويل حتى اذا خيم الوجوم عـلى الناس حـين يرتفع هنـا وهنـاك عويـل بعض الفتيات سقط الميت على ساقيه وهو متعتع مـن السكر فتتغير اللوحة فى رمشة عين ويعـــود الصخب والمرح والغناء .

أنه جيل شباب مفلس يحاول أن يستقطـر السعادة من خلال سخريته بحياته وفوضـاه .

الى هذه الاحياء كنت الجأ حين تستبد بى الكآبة أو يخيم على نفسى الاحساس بالوحدة والاغتراب وفى هذه الاحياء كنت أرى وجه باريس اكثر حقيقة مما أراه فى نواحيها الحديثة واماكنها الهامة ٠

كنت فى طريقى لابدأ رحلة المساء والليل عندما التقيت بأحمد وثلة من أصدقائه كانوا يتمشون فى شارع السان ميشيل ٠ وخلال وقفتنا التى استغرقت عشر دقائق أفهمنى بأنه قد أستفسر من محام صديق بأن الحصول على الاقامة يتطلب ثلاثة شروط ٠ أن التحق بمعهد الاليانس كطالب وهذا ممكن تحقيقه وان احصل على ورقة سكن وهذا ايضا ممكن وشرط اخر أن تزودنى السفارة بورقة تثبت أن مبلغا شهريا يحول الى من بلادى عن طريقها وهذا

ليس بالامكـان • ولو كنت أجيد اللغة لكـان من السهل الحصول على عمل ما خلال اسبوع او اكثـر ، والا فأن على أن أغادر بعد يومـــين أو ثلاثة بعد أن أوشكت إقامتى تنفذ • عندئذ لـم أجد بدا من الضحك • فقلت لـه غدا او بعده سأعطيك قرارى • وربما هـذه الليلة • وودعته شاكرا ثم تابعت طريقى • وفيما كنت أتسكع هنا وهناك أدركت أن لا مناص مـــن السفر • وعندما أقبل الليل اتجهت الى الحـــى اللاتينى وتناولت عشائـى فى مطعم جزائرى، ولما غادرته كانت موسيقى القيثـارات وطبول التام تام تتجاوب مع رقصات الشباب واغانيهم• فقررت أن أقذف بنفسى فى مدخل اية واحدة من علب الليل تصادفنى •

وهكذا وجدت نفسى اشق طريقى بصعوبة لانزل مع النازلين الى جوف مرقص صغـــير

اختلطت فى جوه سحب الدخان مع رائحة البيرة وصوت الجاز • كان رواده خليطا من الفتيات المراهقات وذوى اللحى من مدمنى المخدرات. كل من يقف على رجليه كان يرقص أو يترنح والجالسون يعربدون ويتضاحكون • والمغنية الزنجية كان صوتها ينبعث من فم كبير طار فكه الاعلى • وفى زاوية معتمة وقفت انظر وأستمع • وعندما جاء النادل يقدم لى قدحا من البيرة رفض أن يضعها فى يدى قبل أن أسلمه عشرة فرنكات فدفعت له • وعندما رفعت الكأس الى فمى انكب قسم منه عندما جاءتنى من يمينى رفستك القوية •• دعينى استمر •• أجل كنت ترقصين وكأنك فى حلبة مصارعة • أصطدم الكأس بذقنى وأوجعنى • أنحنيت ووضعته بين حشد من الكؤوس على طاولة قريبة •

وهنا قالت فرانسواز :

ـ أعترف أننى كنت البارحة شديدة السكر ويؤسفنى أن أكون قد أوجعتك . ـ

فقلت لهـــا :

ـ على أية حال كان ذلك بداية تعارفنا . ـ أذ أننى بعد ذلك التفت نحوها وامسكتها مـن مرفقها وصحت بها : « مادموزيل ! »

وأفهمتها بالاشارة لتبتعد عنى . سكنت لحظـة، ثم قربت وجهها منى وكان وجها جميلا ناعمـا تحيطه غابة من الشعر الذهبى المنتثر وقالـت معتذرة بصوت يفوح برائحة الخمر :

« عفوا مسيو ! »

عندئذ هدأ غضبى وتركت ذراعها تسقط من
يدى وعدت لاجد كأسى فارغة . لم أستطع أن
أميز شاربها . وليس بين الجالسين على الطاولة
الخشبية السميكة من يمكن أن يعترف فطلبت
كأسا أخرى . وعندئذ أضطررت أن أخرج
كل نقودى لاستل منها ورقة بعشرة فرنكات
أخرى . لاحظت بعد قليل أن الفتاة الحسناء
كانت تتقرب منى . وربما كان الزحام يدنيها
نحوى . ولكننى بدأت أحس بدفء بنطالها
وهو يتلصق بساقى . وكانت ممتلئة برشاقة .
وبعد أن شربت اخر قطرة من كأس البيرة الذى
كان بحجم كؤوس عصى الفرسان الذهبى ،
أحسست بالانبساط والنشوة . فأبتعدت عن
الفتاة قليلا واسندت ظهرى على الجدار الصخرى
أرقب الراقصين الذين كانوا يتجددون بين
وقت واخر . والفتاة عادت تتمحك بى .

وعندما تأرجحها الموسيقى كانــت تلامســنى بجسدها البض ، وحــين التقت عينى بعينهــا كانت تبتسم بخبث • كانت تتحرش • فأبتسمت لها بدورى • وهذه الابتسامة شجعتها لتهمس بأذنى جملة لم أفهمها بادىء الامر • فأضطررت أن أخاطبها بالانجليزية قائلا :

ـ اننى أجهل لغتك يا آنستى ! ـ

فأجابتنى بلغة أنجليزية واضحة :
ـ أننى أفهمك • هل تسمح لاقدم لــك كأسا عــلى حسابى •

أخذت أحك رأسى وعينى تراقب عينيهــا المتوسلتين ثــم قلت :
ـ ولم لا تكون على حسابى انا •

فضحكت : ونادت على النادل ٠ وعندما حضرت البيرة كنا نقف لصق الحائط وكل منا يضع فمه في اذن الاخر وقد ازددنا التصاقا ببعض٠

ـ اسمى فرانسواز ٠ وانت ؟

قلت لها أسمى ، فسألتنى :

ـ سائح ام طالب ؟

ـ سائح

ـ ما عملك ؟

ـ رسام

ـ وحدك ؟

ـ أجل ٠٠٠ وانت ؟

أشارت الى طاولة قريبة وقالت : «انهم رفاقى» ونظرت الى رفاقها فوجدتهم مستغرقين فى

أحاديث خاصة رغم الجو الصاخب المعربد ·
وكانت أشكالهم تدل على الصعلكة أو من الجيل
الساخط الذين رأيت كثيرا منهم يحمل شعارات
الحب والثورة ·

سألتني :
ـ أيها الاسمر من أى بلد انت ·
لكى أرد عليها كنت بحاجة الى الصراخ، فأجبت:
ـ من بغداد !

تسللت أصابعى الى شعرها الناعم · استنامت
لهذه الحركة · فرفعت وجهها نحوى بحنان · كنا
فى المؤخرة · خلف الظهور · فملت على خدها
الناعم الملتهب ، وطبعت قبلة ·
تمتمت شفتاها : «ميرسى !»
وأخذت تعب بقية الكأس · دعتنى للرقص

معها فأعتذرت • بعد وقت قليل أحسست بدوار في رأسي، بسبب الجو الوخم فقلت لها انني خارج لاستنشق الهواء ، فقالت : «لن تتأخر ؟»

فقلت : ـ كلا • • سأعود •

رفعت عنها ذراعي وخرجت •

في الشارع كان الهواء عليلا والسماء صافية • وعلى بعد خطوات من ذلك الكهف الخانق وقفت أتنفس الهواء الذي جعله المطر منذ سويعات نقيا شفافا • وعندما رفعت وجهي الى السماء رأيتها تتألق بالنجوم • فأشعلت سيجارة ورحت أدخن وأنا ألقي على العابرين نظرة شاردة • ورغم وجود الفتاة معي منذ قليل فقد كنت أشعر بوحدة تاعسة •

هممت بالعودة الى الكهف ولكننى تذكرت ما أنفقته من الفرنكات فآثرت أن أغير وجهتى فأبتعدت وعلى مسافة مائة ياردة سمعت صوت الفتاة ٠

ــ أين تذهب ؟

توقفت ، أستدرت نحوها ٠ تطلعت الى قامتها الرشيقة وقلت :

ــ لست أدرى أين أذهب ، سأبحث عن مكان أرتاح فيه ٠ معذرة !
حملقت فى وجهى ، وهمست :

ــ أنا أيضا غير مرتاحة فى ذلك القبر الصاخب ٠ أم تراك تهرب منى ؟
أضحكتنى من الاعماق ٠ فقلت لها :

ـ كدت أعود اليك ، ولكننى غيرت رأيى .
أختلف الجو • وها أنــت تلاحظــين الفــرق •
يمكنك أن تعودى أما أنا فلا أطيق العودة •

ـ حسنا ، أين يمكنك أن تذهب ؟
بدا لى سؤالها ملحا ، فسألتها بكياسة :

ـ وما شأنك بحالى ؟
طأطأت رأسها وقالت :

ـ لعلك بحاجة الى رفيق • أنا أعرف كل
زاوية فى باريس • وانت غريب بحاجـة الى
مــن يدلــك ؟

ـ لست حديث العهد بباريس • ولكننــى
أفضل الجلوس على أحدى المصاطب المطلة عــلى

السين والى جوارى زجاجة من البيرة ! ـ
فصفقت كفيها وقالت :

ـ فكرة رائعة • حبذا لو رافقتك !
ـ لا مانع لدى • ورفاقك ؟ ـ

قالت وهى تطوق ذراعى بغنج :

ـ أعرف أين أجدهم • هيا بنا ! ـ

كنا نجلس على حافة الجدار المطل على السين • وبيننا زجاجة بيرة من الحجم الكبير اشترتها كانت تنتقل بيننا من فم الى اخر • وهناك عبر النهر كان اللوفر يبدو كشبح هائل تحت سماء الليل • ومياه النهر ساكنة تحت أقدامنا لا يمزق سكونها سوى همس وضحكات العشاق المنتشرين

على كورنيشه الطويل وتحت قناطره العديدة .

بعـد حديث قصـير تبين لى أن فرانسواز مثقفة وشاعرة . أمتهنت التدريس فترة مـن حياتها ثـم تخلت عنه لتنصرف الى حياة اكثـر طلاقة وصميمية . وعندما كنت أفرغ اخر قطرة من الزجاجة فى فمى ، أنبعث صوت شجى يردد أغنية فرنسية عذبة اللحن .

بدأ رخيما دافئا ثم أرتفع محلقا فى سكون الليل واستمر نحو عشر دقائـق ليملأ مسامعى بأحلى غبطة واعذب عاطفة . فرحت طـوال الوقت أصغى الى فرانسواز بنشوة . ولكننـى للاسف لـم أكن أفهم شيئا من كلمات الاغنيـة أو أدرك قيمتها الا حين أنتهت منهـا عندمـا صفـق لهـا كل من سمعها . وكنـت اسمـع التصفيق فى كل ناحية ، وكأن ملائكة خفيـة

كانت تكمن وراء استار الليل قد سحرت بشدو هذه الفتاة .

ترجمتها لى بعد أن عاد الهدوء يلفنا بسكونه .

« عندما تذهب بعيدا
تذكر ، أيها الحبيب ، أنك سوف تعود
وكلما طال بك البعاد
طال بى الانتظار
لان حياتى غدت
وقفاً على لقاك
وما دمت تذكر
فأنت لا محالة تعود
فلا تتعب نفسك بالذهاب
بعيدا ... بعيدا
يا حبيبى ! »

وعدتنى بأن تعرفنى على رفاقها فى اليوم التالى، وعندما لاحظت اننى كنت ميالا للصمت، طفقت تسألنى عن بلادى . فأخذت احدثها بما أعرفه عن طموحات بلادى وثقافتها . وخلال حديثى أدركت أن الفتاة تتعرف لاول مرة على شخص من الشرق . رغم أنها على جانب كبير من معرفة أحواله وقضاياه المعاصرة .

بعد ذلك ، تركنا موضعنا ، واخذنا نتمشى جيئة وذهابا فوق الرصيف بعض الوقت .

سألتنى عن مكان سكناى . فقلت لها اننى أقيم مع صديق . وسألتنى اكثر من مرة عما أذا كنت بحاجة الى غرفة ، فكنت أجيبها بأننى لم أقرر بعد .

استوقفتنى فجأة وهمست : « لدى شقة . فهيا لادلك عليها . »

وكان بوسعها أن تجرني خلفها الى نهاية الارض . فهي من الصنف الساحر من النساء اللواتي ما أن يتعرف عليهن المرء حتى يجد نفسه معهن مجذوبا ولوعا .

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة عندما وقفنا أمام بناية صغيرة في أحد الاحياء القريبة من شارع سان مارسيل . وفي الطابق الثاني من البناية كانت شقة فرانسواز . شقة أنيقة جدا وبسيطة للغاية . كانت مؤلفة من غرفتين وصالون ومرافق . وكانت تقيم معها صديقة ما تزال تعمل مدرسة للموسيقى، قالت أن موعد عودتها لم يأزف بعد . وانها منهمكة في بروفات حفلة موسيقية سوف تدعوني اليها بعد أيام .

قالت فرانسواز :

ـ أمامنا ساعة نقضيها معا . لنشرب قدحا من القهوة اولا .

وبعد أن مضت بنا الساعة فى تلك العزلة السعيدة، وفى جو من الحب العنيف والموسيقى العذبة ، تبين لى أن حافظة نقودى قد أختفت .

لم أشك بالفتاة اطلاقا . كان قلبها الكبير أخلص من الماس واغلى .

لاحظت وجومى . اقتربت منى وصوبت نحو عينى نظرة متسائلة .
قلت لها :

ـ انت تعلمين أننى كنت أحمل نقود، معى . ـ

قالت مندهشة :

ــ رأيتها عندما دفعت ثمن الاقداح • ولكن ماذا حدث ؟

أجبــت : « فقدت المحفظة » ...

عندئــذ هتفت باشمئزاز :

ــ لقد نشلك القذرون !

تذكرت الممر الضيق والسلم الذى اكتظ جانباه بالرواد والصعوبة التى كابدتها وانا أنســل بينهــم • فقلت :

ــ أغلب الظن ، أنها سقطت من جيبى •

حاولت فرانسواز أن تقدم لى بعض النقــود، فرفضت • كان فى جيب بنطلونى نحو عشريــن فرنكا مفرقة ، هى كل ما أملكه • فقلت أهون عليها الامر :

ــ أننى أحفظ بقية نقودى لدى صاحبى •

أرجو أن أراك مرة أخرى فى وقت اخر .
وقبلتها بحنان ثم ودعتها فى باب شقتها .

وعندما مضيت مسافة فى الشارع حانت منى التفاتة نحو البناية فرأيتها واقفة وراء النافذة ترنو الى . واذ تابعت سيرى خيل الى أننى سوف لن أراها بعد .

وصلت شقة أحمد حوالى الواحدة بعد منتصف الليل . كنت حزينا مرهقا . سلمت عليه ودخلت الى غرفتى والقيت بنفسى على السرير ونمت بثيابى .

قلت لفرانسواز :
ــ كنت رائعة ليلة أمس . لقد تركت فى نفسى ذكرى خالدة .

فقالـــت :

ـ وأنت كذلك . تمنيت أن ألقاك مـــرة أخرى ولو بنظرة . كنت قلقة عليك . خشيت أن تكون قد كذبت على حين ادعيت بأن لديـك نقودا أخرى . أو لـم تزعم فى قصتك أنـــك كنت تحمل معك كل ما تملك ؟

أوضحت لهـا معترفا :

ـ الواقع هو اننى تركتك البارحة وأنـــا لا أعرف ما أفعل ، بعد أن لم يبق معى ســوى بضع فرنكات أما الان فلدى اكثر من الف . ومضيت أتابع ما حدث لى بين ليلة وضحاهـا .

أفقت حوالى العاشرة صباحا . تناولـــت قدحا من القهوة وقطعة من الخبز . تذكرت أن لدى يومين اخرين وتنتهى اقامتى . تفحصـت

ممتلكاتى • وكانت عبارة عـن حقيبة ملابس وورقة مضغوطة على قطعة من الكرتون السميك كانت جاهزة للرسم بألوان البوستر ، وكل شيء أخر قد ضاع • فكرت أن أذهب الى الشـــاب السويسرى واعرض عليه بيع البوستر الـذى طـال الوعد في طبعه • كذلك قررت أن أنتهى من رسم اللوحة بأسرع وقت •

وفيما كنت استقل الميترو استقر عزمـى على السفر الى المغرب او الجزائر • وهناك يتاح لى أن أعمل واتعلم اللغة الفرنسية اثناء أقامتى هنا أو هناك • وصلت شقة البير حوالى الظهر • استقبلتنى زوجته فعلمت منها أنه ذهب لشراء بعض الحاجات المنزلية • كدت أرجع من حيـث أتيت لولا انها الحت على بالدخول • لاحظـت أنها كانت هى الاخرى رسامة • فبعد أن قدمت

لى قدحا من عصير البرتقال جلست وراء طاولتها واخذت ترسم مجموعة من الازهار بالالوان المائية • سألتنى :

ـ ما رأيك ؟

أجبت وأنا أنظر الى نموذج الطبيعة الجامدة أمامها :

ـ تعجبنى هذه الطريقة • والوانك شفافة نظيفة• هل انت كذلك عندما ترسمين بالزيت؟ قالت أنها قلما ترسم بالزيت وانها اعتادت منذ عشر سنوات أن ترسم بالالوان المائية • وقد أقامت عدة معارض انطباعية عالجت فيها نفس المواضيع ولكن بأساليب مختلفة • وانها أشتهرت كرسامة مائية • وفى هذه الاثناء كان البير قد حضر حاملا كيسين من الورق ملأهما بالقنانى والخبز والمعلبات •

رحب بى بحفاوة ، حاول أن يستبقينى للغداء ، الا أننى كنت قد شرحت له بأن وقتى ضيق ، وعندما سألته عن البوستر اعتذر بسبب انشغاله وقال أن طبعه يستغرق اسبوعين اخرين . فقلت له اننى ربما أغادر فرنسا غدا . وعندئذ خيرنى بين استرداده وبين قبول مبلغ بسيط على الحساب . وقدم لى ورقتين من فئة المائة فرنك .

تناولت من يده النقود وقلت له :

ـ المهم أن تطبع البوستر ولك أن تتصرف بريعه ، كهدية أو تتبرع به للجهة التى رسم من أجلها . ـ

ثم ودعته وزوجته وخرجت .

لقد صار معى ما يكفى لمغادرة فرنسا على الاقل • واسرعت بالعودة الى الشقة، وفى رأسى يلتهب موضوع اللوحة التى قررت أن أرسمها لتكـون ورقتى الاخيرة فى لعبة الحظ • وعندما وقفـت أمام الورقة لارسم فكرت فى أن أرسمها بطريقة لم أسلكها من قبل • وقررت أن أسجل عليهـا بواسطة خليط مبعثر من الالوان والاشكـــال كل انطباعات رؤياى لباريس الليل وحياتهـــا

وبعد نحو ساعتين وجدتنى أمام عالم مشوش من الالوان وخليط مضطرب من الاشكال، ولكنها جاءت رائعة التكوين قوية التعبـير، ومن المحال أن يتكرر رسمها أو يعاد، ما دام كل شيء قـــد تم بعفوية وحماسة •

كان اطارها الانيق جاهزا لدى• وبعـــد نصف ساعة كانت قد نشفت تماما• وعندئـذ

تناولت غداءا بسيطا مكونا من بيضتين وشريحة لحم كنت احفظهما فى البراد• وكالعادة شربت قدحا من الشاى، وحملت لوحتى الى حى الفنانين فى مونمارتر•

كانت الساعة قد جاوزت الرابعة عصرا بقليل• والجو صاف والشمس ساطعة والساحة تعج بالسواح والمقاهى تغص بالرواد واغلب الرسامين وقفوا الى جوار لوحاتهم وعلى شفاهم بسمات الامل والرضى • وفى مقهى تطل على ساحتهم اخترت مقعدا جوار طاولة خالية ، وأسندت لوحتى المغلفة على ظهر الكرسى المواجه، ورحت ارتشف فنجان القهوة الذى سرعان ما جلبه النادل •

كانت حركة السواح على أشدها • مما شجعنى منظرهم على أن أكشف النقاب عن

لوحتى التى بلغ أرتفاعها نحو ثلاثة أقـــدام وعرضها قدمان • فبدت زاهية يحف بها اطار أبيض أنيق• وبين حين واخر كنت اســـترق النظر الى بعض العابرين فألاحظ بعضهم يتوقف على بعد خطوات يتطلع بدهشة لا تخلو مـــن التساؤل نحو هذا المهرجان من الالوان اللامعـة والداكنة، الضاحكة والعابسة، المظلمة والمضيئة وما هى ساعة حتى وفدت امرأة تناهز الستـين من العمر • كان واضحا أنها سائحة• حملقـت فى اللوحة برهة من وراء نظارتها البيضاء، ثم مطت بوزها وابتعدت • ورأيتها بزاوية عينى تعود ثم تقترب شيئا فشيئا كأنها فى سبيلهـــا لاصطياد دجاجة، حتى كاد ذقنها يلامس كتفى• واخذت تمعن النظر فى اللوحة نحو دقيقـة • وبعدها تراجعت خطوة والتفتت نحوى تتفحصنى أنا الاخر ، الجالس بهدوء، مسندا رأسى عـــلى

كفى أرنو الى قباب الكنائس وهى تتوهج تحت شمس الاصيل ٠

ـ ما معنى كل هذا أيها السيد ؟

خاطبتنى بانجليزية واضحة وبلكنــة اوربية ، فوقفت بأحترام وقلت :

ـ أنها باريس يا سيدتى ؟
فصاحــت :

ـ أوه ٠٠٠ حقا ؟ ٠٠ يا لها من فكرة !
من أين اشتريتها ؟
أجبت : «أنا الذى رسم هذه اللوحة ٠!»

فى هذه الاثناء أقتربت من المرأة فتاتــان

تناهزان العشرين من العمر، كانتا ترافقانهـا عن بعد• فالتفتت نحوهما وقالت :

ـ هل تريان باريس فى لوحة السيد ؟

أبتسمت الكبرى واحمر وجه الصغرى • فقالت المرأة تخاطبنى :

ـ أفلا شرحتها لنا من فضلك !
فأوضحت قائـلا :

ـ رسمت باريس من خلال رؤيا • هكـذا لاحت لى• حياة لا تنام • وروح تتجدد كشعلـة تستمد وقدهـا مـن حيوية لا تعـرف الخمـول واليأس• لا يحيط بسرها الا من عاش فيهـا عمره كلـه • أمـا ضيوفها فيظلـون حيارى لا

يعرفون متى يأتونها وكيف يغادرونها . ولا يعلمون ماذا يعطون لها وماذا يأخذون. مدينة الحلم الانسانى . من رآه يود الا يصحو منه . سحرها يكمن فيما يشيعه تأريخها وحاضرها فى نفوس الاخرين من اعجاب وحب .

قاطعتنى المرأة سائلة :

ـ كم ثمنها من فضلك ؟

أجبت بحماس التاجر البارع :

ـ ألف فرنك !

ـ انه مبلغ كبير أيها السيد !

أيدتها الفتاة الكبرى قائلة بدهشة :

ـ حقا ...

عندئذ هويت على مقعدى، غير مبال. ولكن المرأة العجوز لم ترحل. لبثت تتطلع فى وجهى طويلا وكأنها تتعرف على ، وسمعتها تتمتم :

ـ ليكن ما تريد ايها الشاب . اعطنى عنوانك ايها الفنان !

وقفت ثانية غير مصدق . لاول مرة شعرت بقيمتى كرسام . ومع ذلك فأن المبلغ لو قيس بثمن فنان معروف لبدا تافها لا وزن له .

وقدمت للمرأة ورقة صغيرة كتبت عليها عنوان اقامتى مع أحمد . وما هى دقائق حتى أعدت اللوحة الى غلافها . وفى هذه الاثناء كان قد تحلق حولنا بعض الفضوليين . وفتحت المرأة حقيبتها اليدوية وقدمت لى أربع ورقات

من فئة الخمسين دولارا • فشكرتها • ولبثت بعد ذلك أرقبها وهى تبتعد واحدى الفتاتين تحمل لها اللوحة بزهو وخيلاء •

بذهاب اللوحة لم يبق لدى ما أعمله • كان قرار الرحيل قد تم • فألقيت نظرة اخيرة على هذا الحى الذى سيبقى خالدا فى ذاكرة الفن يتردد عليه الناس من كل حدب وصوب ليشاهدوا كفاح الرسام وهو يكدح من أجل أن تكون الحياة أكثر عمقا وزهوا وجمالا • ولم تكن لدى رغبة فى الذهاب الى أى مكان اخر، فقدمت الى هنا • لقد وصلت قبلك بقليل •

عندما أنتهيت من حكايتى كان الليل قد جن، ومن خلال النور الذى كانت ترسله أضواء السيارات من ورائنا رأيت الدموع تنهمر من

عينى فرانسواز فقلت :

ـ اعذرينى . أردت أن اسليك بحكايتى .

فقالت وهى تشرق بالدمع :

ـ اذن فقد قررت الرحيل ، آه مـا أتعس حظوظنا فى هذا العالم . ما كدنا نتعارف حتى أفترقنا . هاك عنوانى عساك ان تكتب الى فـى يـوم مـا .

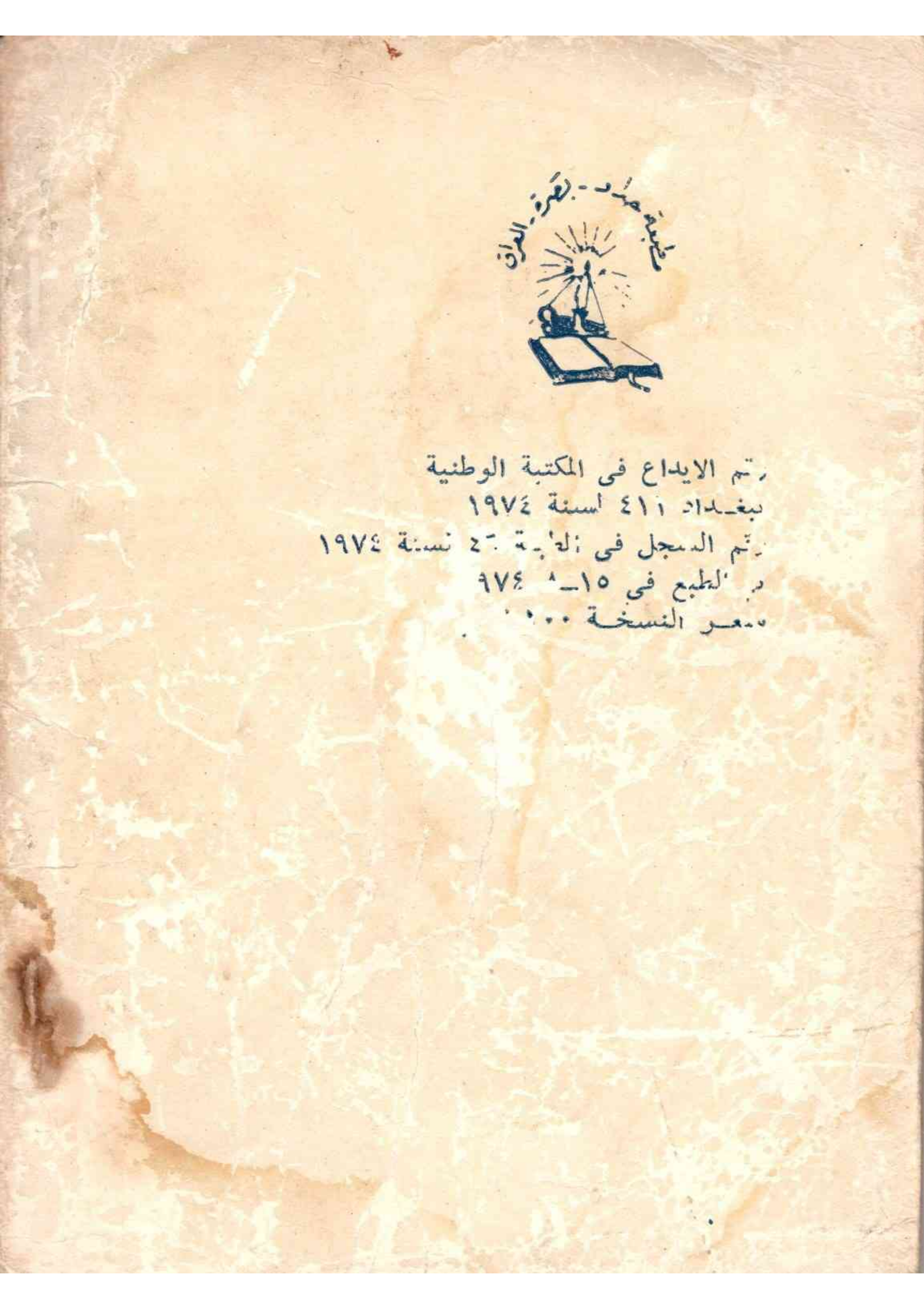
احتفظت بعنوانها . وعدتها بأن اكتب لها واكتب عنها أجمل صفحة فى ذاكرتى . وعندما أقبل رفاقها من بعيـد يلوحـون لهـا بأذرعهم، وكانـوا شـابين ترافقهما فتاتـان أدركت أن فرانسواز كانت خلية القلب مثلى .

دعتنى الى قضاء السهرة معهم، الا اننى اعتذرت لها بأن على أن اعود فى وقت مبكر ليتسنى لى أن أودع أحمد دوجانين وروبير بعد ان قررت الرحيل فى الفجر ٠

ما زال رفاقها بعيدين، فوقفنا ٠ وقبل أن أفارقها أخذت رأسها بين كفى وقبلتها قبلات حميمة ثم ابتعدت عنها ٠ وعندما استدرت ورائى بعد مسافة رأيتها كليلة الامس، واقفة كشبح تنظر نحوى ٠ فلوحت لها بذراعى ثم مضيت ٠ وفى فجر اليوم التالى كنت قد رحلت ؟

١٩٧٠





رقم الايداع فى المكتبة الوطنية
ببغداد ٤١١ لسنة ١٩٧٤
رقم التسجيل فى المطبعة [illegible] لسنة ١٩٧٤
تم الطبع فى ١٥ـ[illegible]ـ١٩٧٤
سعر النسخة ١٠٠